المقال في المنهج

لديكارت

بقلم : الدكتور عثمان أمين

تقديم :

ان من حق كل أمة على العموم أن تفخر بنوابغ الفكر فيها ، وأن تعلن على رءوس الأشهاد أنها ، بفضل فلاسفتها وعلمائها ، قد استطاعت أن تشارك في بناء الحضارة الانسانية بالنصيب الأوفى • ومن حق الأمة الفرنسية على الخصوص أن تعتز بأكبر أبنائها ـ ديكارت ـ الذى كان له القدح المعلى فى الفلسفة والعلم على السواء • وبهذا الفضل الغامر اعترف أقطاب الفكر من الانجليز والألمان ، فلم يكن عجيبا أن نرى « تشارلز مورجان » يكتب ابان الحرب العالمية الأخيرة ، وفرنسا تئن تحت نير الاحتلال الألماني ، فيقول : « ان فرنسا فكرة ضرورية للحضارة »؛ ولا غرو أن يوجه « هيجل » كلامه الى « فكتور كوزان » فى منتصف القرن الماضى ، فيقول : « لقد عملت أمتكم للفلسفة عملا جليلا حين أعطتها ديكارت •• » •

منذ منتصف القرن السابع عشر أطل ديكارت على التاريخ فى صور وشخصيات مختلفة كل الاختلاف ، وشأنه فى ذلك شأن كثير من عباقرة الفكر قدماء ومحدثين • من رجال القرن الثامن عشر من عابوا عليه أفكاره « الظلامية » (أو « الرجعية » كما يقال اليوم) ، فى حين أن الكثيرين من أهل القرن التاسع عشر رأوا فيه هادم التقاليد العتيقة ، و « الثورى الفكرى » على الأصالة ؛ بينما نجد آخرين منهم يجعلون منه وريث « الاسقولائية » (المدرسية) ومجدد التقاليد ، نجد غيرهم وقد رأوا فيه نصيرا للكاثوليكية ، وحوله آخرون الى عالم «وضعى» قبل الأوان ؛ بل ذهب بعض المحدثين الى أنه الرائد لمدرسة « التحليل النفسى » وأول من رسم خطوط فلسفة للغريزة وللشعور • وأخيرا ذهب باحث معاصر الى أن ديكارت كان فيلسوفا « مقنعا » ، عاش عيشة مستعارة ، وأخفى على الناس حقيقة أفكاره •••

والناظر المتأمل فى حياة هذا الرجل وفلسفته لا يخلو من أن يتبين أنه ما من صورة من هذه الصور المختصرة الصارخة يمكن أن تكون مطابقة

للحقيقة الواقعة : فديكارت ، فى نظر من صحبوه صحبة تعاطف وائتناس ـ أعنى صحبة جوانية لا صحبة عرضية ـ ، هو رجل فكر حر ، واضح، صريح ، بعيد عن التكلف والحذلقة ، برىء من رطانة المتعالين والمتفيقهين، نفور من عقلية أصحاب المهنة » وطلاب الشهرة ؛ حاول مخلصا أن يستبين لنفسه صورة للكون ، تضفى على حياته السلام الداخلى ، وتعطيه قدرة على الفكر والعمل • وقد استفاد عناصر هذه الفلسفة مما خبره بنفسه ، وما حصله من الكتب ، وما تعلمه من الأساتذة • وظل الرجل ـ خلافا لما ادعاه بعض المتزمتين ـ مستمسكا بعرى عقيدة دينية خالصة ، كان لها أكبر الأثر حتى على مذهبه العقلى وأفكاره العلمية •

بعد أن درس الرياضة والموسيقى ، ارضاء لميوله الخاصة ، شرع يفكر فى الوجوه الكثيرة للبحث عن الحقيقة • وهيأت له المصادفة السعيدة لقاء عالم لماح أحاطه معرفة بعلمى الجبر والميكانيكا الجديدين • وبعد أن لاحظ طرائق أصحاب الجبر المعقدة ، وبعد أن قام بتبسيطها استجابة لطبيعته النزعة الى الوضوح ، أخذ يستشف منهجا جديدا يمكن اصطناعه وتطبيقه مهما اختلفت موضوعات البحث • وبعد أن كمل هذا المنهج تدريجيا ، عمل على تطبيقه عى الهندسة والميكانيكا والفيزيقا والفلك والبيولوجيا والميتافيزيقا والأخلاق • ولقى فى الطريق كشوفا كثيرة تستحق أن تذكر ، وكان نجاحه دائما مهمازا لهمته يستحثها على مواصلة البحث والكشف • وأعرض عن معرفة كل شىء ، كما كان مطمح السابقين ، وقصر جهده على أنفع المعارف فى هذه الحياة ، جاعلا مطمحه الدائم وضوح الرؤية لأعماله والسير مطمئنا فى حياته • واقتنع أنه لتحقيق هذه الغاية لا بد من العلم ، العلم الذى يجعل الانسان سيدا على الطبيعة ، ويمكنه من التغلب على جميع الصعاب ، ويعينه على أن يقهر الموت نفسه •

١ ـ سيرة ديكارت :

نكتفى هنا بنبذة موجزة عن هذا الفيلسوف الذى لا تعدو حياته أن تكون مغامرات فكرية ليس للأحداث الخارجية فيها الا مكان ضئيل •

لقد كان على الكثيرين من كبار الفلاسفة أن ينتظروا ردحاً من الزمن قبل أن يشهدوا نجاح مذاهبهم، وغالبا ما كانوا يرحلون عن الدنيا دون أن يتاح لهم أن يعرفوا من مظاهر هذا النجاح شيئا • أما ديكارت فقد أصاب من ذلك ما لم يكن يقع له فى حسبان : اثباته الحدسى لحقيقة الأنا المفكرة (الكوجيتو) ، واكتشافه الرياضى الرائع (تطبيق الجبر على الهندسة والميكانيكا) ، ورحابة منهجه ، وطرافة فروضه، وقوة تدليله على وجود الله ، ومبادرته الى استعمال الكشوف الحديثة عن علم الفلك ودورة الدم ـ كل أولئك قد فتح أمام أعين المفكرين آفاقا بديعة، ويسر لفلسفته أن تجتذب العقول الحائرة بعد أن ضاقت بالمجادلات العقيمة بين النظار والباحثين.

كان ديكارت عالما هندسيا كبيرا : اخترع « الهندسة التحليلية » ؛ وكان عالما طبيعيا كبيرا أيضا : كتب الرسائل فى « البصريات » ، و « الآثار العلوية ، والميكانيكا » • ويعد ديكارت زعيم المذهب العقلى فى الفلسفة ؛ وهو أول من ألف الكتب الفلسفية باللغة الفرنسية • وأشهر كتبه « المقال فى المنهج » و « التأملات فى الفلسفة

الأولى » و « رسالة في انفعالات النفس » و « مبادىء الفلسفة » . وقد لقب ديكارت « بأبي الفلسفة الحديثة » ، وأغلب الفلاسفة المحدثين ، مهما تختلف نزعاتهم ومهما تتشعب مسالكهم ، هم تلاميذه وأبناؤه الروحيون .

ولد « رنيه ديكارت » في الطريق بين « شاتلرو » و « لاهي » (بمقاطعة التورين) في ٣١ من مارس ١٥٩٦ . وتعلم في مدرسة «لافليش» على أيدي اليسوعيين (١٦٠٤-١٦١٢). ولما أتم دراساته بها وعمره ست عشرة سنة ، ظل مترددا في اختيار طريقة حياته طوال اثنى عشر عاما ، فتارة يخالط الناس وتارة يخلو الى نفسه في عزلة مؤقتة ، وأخرى نراه منخرطا في سلك الجندية ، أو متنقلا في كثير من البلاد الأوربية . وأخيرا قرر فيما بينه وبين نفسه أن ينقطع للبحث عن الحقيقة في العلوم ؛ فاذا به يغادر فرنسا نهائيا وبلا رجعة ، ويذهب الى هولندا التماسا للهدوء وللحرية بعد أن عز عليه أن يجدهما في وطنه (١٦٢٩) ؛ وفي هولندا لبث الفيلسوف عشرين سنة . وفي سنة ١٦٤٩ غادرها الى استكهلم ، استجابة لالحاح الملكة «كريستين» ملكة السويد ، ومات هنالك بعد أشهر قلائل في ١١ من فبراير سنة ١٦٥٠ وعمره ثلاث وخمسون سنة [١] .

٢ ـ فلسفة ديكارت :

(أ) أكبر مؤلفات ديكارت الفلسفية كتابه « مقال في المنهج » . نشره سنة ١٦٣٧ باللغة الفرنسية . وكان في نشره بهذه اللغة ثورة على العرف المألوف بين المفكرين والعلماء . وهو يبرر هذه الثورة بقوله : « اذا كنت أكتب باللغة الفرنسية التي هي لغة بلادي ، بدلا من أن أكتب باللغة اللاتينية التي هي لغة أساتذتي ، فذلك لأنني آمل أن هؤلاء الذين لا يستعينون الا بعقولهم الفطرية الخالصة سيحكمون على آرائي حكما أفضل من حكم أولئك الذين لا يؤمنون الا بالكتب القديمة » .

والكتابان التاليان كتبهما باللاتينية للمتخصصين : « التأملات في الفلسفة الأولى » (١٦٤١) و « مبادىء الفلسفة » (١٦٤٤) .

وطلبت اليه تلميذته « الأميرة اليزابث » أن يكتب في أحوال النفس والأخلاق ، فألف بالفرنسية رسالة موجزة « في انفعالات النفس » نشرت سنة ١٦٤٩ .

وكان قد ألف في شبابه كراسة باللاتينية بعنوان « قواعد لهداية الذهن » ، نشرت غير مكتملة بعد وفاته . وكذلك بذل جهدا كبيرا في تأليف « رسالة في العالم » أو «رسالة في الضوء» يليها «رسالة في الانسان» ، وفيها ذهب الى أن الأرض تدور حول الشمس . ولما علم بأن جاليليو قد حكم عليه وزج به في السجن لقوله بهذا ، أمسك عن نشر الكتاب ، فلم ير النور الا بعد وفاته بأكثر من ربع قرن . ولكنه انتزع منه ثلاث رسائل صغيرة جعل « المقال في المنهج » تصديرا ومقدمة لها ، وهي : « البصريات » و « الآثار العلوية » و«الهندسة » .

(ب) المنهج : كان ديكارت قد فكر في أن يجعل عنوان « المقال في المنهج » : « مشروع علم كلي يستطيع أن يرفع طبعتنا الى أعلى درجات كمالها» ويرمي المنهج الذي استكشفه الى غرضين نظري وعملي : فهو ييسر « البحث عن الحقيقة في

(١) انظر مقالنا عن « التأملات في الفلسفة الأولى لديكارت » ـ في « تراث الانسانية المجلد الاول » ، العددان الاول والثاني ، يناير وفبراير ١٩٦٣) .

العلوم » وييسر لكل انسان « أن يحسن قيادة حياته »

وهذا المنهج الكلى الشامل لا يعتمد على المنطق القديم : لأن « القياس » الذى يقتصر فيه على استخلاص النتيجة من قضايا مسلمة من قبل، هو « أدنى الى أن ينفع فى أن نشرح للغير ما نعرف من الأمور » لا أن نتعلم تلك الأمور ولا أن نجد حقائق جديدة لم نكن نعرفها • والمنهج الجديد يجب أن يستلهم المناهج التى تستعملها الرياضيات ، ولكنه يجب أن يكون أعم منها • وهو يعتمد على عمليتين ذهنيتين على الأصالة : « الحدس » و « الاستنباط » والحدس هو الادراك الذهنى المباشر لحقيقة مستكفية بذاتها وتفرض ذاتها اطلاقا: مثال ذلك أنى كائن مفكر، وأن المثلث ذو أضلاع ثلاثة • أما الاستنباط فهو « الحركة المتصلة ، غير المنقطعة ، حركة فكر يدرك كل شىء ببداهة » • وهو يدرك الرابطة الضرورية التى تربط بين حقيقتين وجدناهما بالحدس ــ والمنهج عبارة عن أن نستعمل الحدس والاستنباط استعمالا حسنا (قواعد لهداية الذهن) •

وفيما يلى عرض موجز للقواعد الأربع المبسوطة فى القسم الثانى من كتاب « مقال فى المنهج » : القاعدة الأولى : أن لا أتقبل شيئا قط على أنه حق ما لم أتبين بالبداهة أنه كذلك بمعنى أن أتجنب التعجل والسبق الى الحكم ، وأن لا أدخل فى أحكامى الا ما يعرض لذهنى بقدر من الوضوح والتميز لا يدع لى سببا لوضعه موضع الشك » • وبداية هذه الفقرة ذات أهمية كبيرة : منذ اليوم يصبح العقل وحده صاحب السلطان ؛ وهذا هو الرفض الصريح لسلطة القدماء ، وهو الوداع الأخير للعصر الوسيط ، وهو الاعلان على رءوس الأشهاد لحقوق الفكر الحر الجرىء •

والبداهة التى يتحدث الفيلسوف عنها هنا لم تعد هى البداهة الحسية ، بداهة ما يسمى بالأمر الواقع المحسوس ، انما هى البداهة العقلية تلك التى تضىء ذهنى أمام القضايا الرياضية • والحدس العقلى يجعلنى أدرك أفكارا «واضحة» أى أفكارا تفرض نفسها على كل ذهن واع منتبه، ويجعلنى أدرك أفكارا « متميزة » ، أى أفكارا بلغت من الجلاء والدقة والوضوع بحيث أن أحدا لا يستطيع أن يخلط احداها بأخرى • الواجب الأول اذن أن نستبعد من أذهاننا كل فكرة « مسبقة » ، لأن مثل هذه الأفكار المسبقة ليست بديهية على الاطلاق • والواجب الثانى أن نتجنب بكل ما فى وسعنا التعجل فى اطلاق الأحكام ، وعلينا أن نصبر وأن ننتظر حتى يجد الذهن نفسه أمام بداهة قاهرة •

والقاعدة الثانية توصى بأن « أقسم كل واحدة من المعضلات التى سأختبرها الى أجزاء بقدر ما فى الوسع ، وبقدر ما تدعو الحاجة الى حلها على خير الوجوه » • والتحليل هنا مثالى ، شبيه بتحليل العالم الرياضى الذى يحلل النظرية الى عناصرها • فمثلا عالم الطبيعة الديكارتى يحلل الضوء ، وهو من المعطيات الحسية ، الى حركات ، أفكار واضحة ومتميزة •

والقاعدة الثالثة ، التى تعتمد كالثانية على الاستنباط ، توصى بأن « نقود أفكارنا بترتيب ، مبتدئين من أبسط المعطيات وأيسرها معرفة » • وهذا تأليف مثالى ، شبيه بتأليف الرياضى الذى يجمع بين تعاريف وبديهيات ، لكى يبرهن على

صحة نظريته • مثـلا عالم الطبيعة الديكارتي يجمع الحركات بحيث يفسر الظواهر البصرية • ويمضي ديكارت فيقول بأن القاعدة توصينا أيضا بأن « نفترض ، مؤقتا ، ترتيبا بين الأفكار التي لا يسبق بعضها بعضا بالطبع » • والفرض له هنا مكانه الى جانب التأليف •

والقاعدة الرابعة : « أن أعمل في جميع الأحوال من الاحصـاءات الكاملة والمراجعات الشاملة ما يجعلني على يقين من أنني لم أغفـل شيئا » • وحين ينطبق هذا الاحصاء على المعطيات الحسية يصبح هو الاستنباط التجريبي• ولتفصيل هذه العمليات يشير ديكارت الى فرنسيس بيكون• ومع أن ديكارت كان يحب أن يخضع كل شيء لاستنباط عقلي، الا أنه لم يغفل عن قيمة التجربة• لقد لاحظ وجرب طوال حياته ، وقام بتشريحات كثيرة ، وكان دائما على دراية بأعمال غيره في العلم • والتجربة تيسر لنا أن نضع المشـكلة : مثلا مشـكلة الضـوء ، بأن نحصي أولا جميع الظواهر الضوئية • ثم انها تيسر لنا أن نعرف أي المعادلات الجبرية تطابق ظواهر فيزيقية • واذا كان الله من الناحية الميتافيزيقية لم يحقق الا عددا معينا من الممكنات ، فالتجربة وحدها تيسر لنا أن نعرف أي الممكنات قد حققها الله بالفعل •

والمنهج ، معرفا على هذا النحو ، يجعـل العلم في متناول الجميع : لأن ديكارت يؤكد في أول فقرة من المقال أن « العقل أعدل الأشـياء قسمة بين الناس » • الذوق السليم هو العقل ، أي « القوة على الحكم الصحيح وتمييز الحق من الباطل » وهي قوة فطـرية موفورة للناس جميعا ، والذي ينقصهم انما هو المنهج : « لأنه ليس يكفي أن يكون للانسان ذهن جيد ، ولكن الأهم أن نستعمله استعمالا جيدا » •

والخطوة الأولى التي يقضي بها المنهج هي أن نشك مؤقتا في جميع الأفكار التي سبق لنا أن تلقيناها بالتسليم•وهذا الشك يضع مشكلة أخرى تمهيدية •

(ج) الأخلاق المؤقتة : يسـتطيع الانسان مطمئن أن يوقف حكمه في مجال الفكر ولكنـه لا يستطيع أن يوقف عمله الى غير نهاية ؛ « فان أعمال الحياة لاتحتمل أي تأخير» • وفي مواجهة الظروف المتغيرة يجب أن يقول الانسان : «نعم» أو أن يقول : «لا» ؛ ويجب أن يعرف لم يقـول هذه القولة أو تلك• فالشك، اذ يوقع الاضطراب في الوجود ، يهدد بالخطـر النشـاط الذهني نفسه • واذن فانتظـارا لأن تهييء لنا الفلسفة والعلم أن نقيم أخلاقا « نهائية » • فان أخـلاقا « مؤقتة » لا بد من اصطناعها ريثما نصـل الى يقين • وفي القسم الثالث من « المقال » يذكر لنا ديكارت القواعد الثلاث أو الأربع التي تيسر له أن يحيا حياة سعيدة بقدر ما في الامكان ، أي حياة الهدوء اللازم لبحوثه •

والقاعدة الأولى : « أن أطيع قوانين بلادي وعاداتها ، وأن أحرص على مراعاة دينها ، وأن أتجنب جميع ضروب التطرف والافراط ، وعلى الخصوص أن أتجنب الوعود التي بها يستقطع المرء جزءا من حريته • وعلى هذا النحو لايكون الفيلسوف عرضة لأن تزعجه المتاعب مع الناس ، ويستطيع أن يصون استقلاله •

والقاعدة الثانية : « أن أكون أشد ما يمكن تصميما في أفعالي ، وأن لايكون استمساكي بأشد الآراء عرضة للشك ، اذا ما صـحت عزيمتي عليها أقل ثباتا ممـا لو كانت من أشد الآراء

وضوحا • وأن أحتذى فى هذا مثل المسافرين الذين يجدون أنفسهم قد ضلوا فى بعض الغابات، عليهم أن لا يضربوا فيها التواء هاهنا مرة وهاهنا مرة أخرى • وشر من هذا أن يقفوا فى مكان واحد لا يبرحونه • ولكن يلزمهم أن يسيروا دائما أكثر ما يستطيعون استقامة نحو جهة واحدة ••• » • فالمتجول الذى ضل طريقه فى غابة يجب عليه أن لا يدور حول نفسه بل أن يختار اتجاها واحدا وأن يسير فيه سيرا مستقيما الى غايته : فهو اذا لم ينه من سيره الى حيث يرغب فهو على الأقل لا بد أن يصل الى مكان يكون فيه أفضل مما لو ظل فى وسط الغابة • هذه القاعدة تجنب الفيلسوف المتاعب الناشئة من التردد ، وتجنبه مشاعر القلق والندم ولوم النفس وتأنيبها ، وهى مشاعر النفوس الضعيفة المتقلبة التى ما تكاد تبرم أمرا حتى تنقضه، وتغير طريقها لأوهى الأسباب !

والقاعدة الثالثة : « أن أسعى دائما الى مغالبة نفسى بدلا من مغالبة المقادير ، وأن أغير رغباتى بدلا من أن أغير نظام العالم • وبالجملة أن أوطن نفسى على الاعتقاد بأنه ما من شيء نقدر عليه قدرة تامة الا أفكارنا » •

واذا كانت القاعدة الأولى تطابق سلوك الابيقوريين وكثيرين من الشكاك ، فالقاعدتان الأخريان فيهما نفحات من الرواقية • واذا تم للفيلسوف أن يصطنع هذه الأخلاق استطاع أن يحقق الهدوء المطلوب لخلوة الفكر ، وأن يستخدم حياته كلها فى تثقيف عقله وفى « التقدم على قدر ما يستطيع فى معرفة الحقيقة » •

(د) الميتافيزيقا : وقواعد المنهج تتيح لنا الآن أن نسعى الى حل أهم المشكلات • وفى القسم الرابع من « المقال » وفى « التأملات » وفى « مبادىء الفلسفة » يعرض لنا ديكارت أسس ميتافيزيقاه •

وفقاً لمطالب المنهج نراه ينقد جميع الأفكار الشائعة ، ما عدا قواعد الأخلاق المؤقتة ، وعقائد الدين ، والمبادىء الأساسية للدولة : فيشك فى وجود العالم الخارجى : « اننا نعرفه بحواسنا والحواس عرضة للخطأ، والاحساس الذى لدينا فى اليقظة يشبه الحلم الذى يكون لنا فى النوم» ويتحدث ديكارت هنا حديث فيلسوف مثالى ، اذا أخذنا المثالية على معنى النظرية التى تنفى وجود عالم خارجى مستقلا عن وعينا»• ويشك ديكارت أيضا فى قيمة جميع استدلالاتنا : « وسرعان ما انتبهت بعد ذلك الى أننى حينما أردت أن أفكر فى أن كل شيء زائف فلا بد بالضرورة أن أكون ، أنا الذى أفكر ، شيئا • ولما انتبهت الى أن هذه الحقيقة : أفكر ، فأنا اذن موجود ، هى من المتانة والوثوق بحيث أن أشد افتراضات الشكاك شططا لا تقوى على أن تزعزعها ، حكمت أننى أستطيع مطمئنا أن أتقبلها على أنها المبدأ الأول للفلسفة التى كنت أطلبها » •

وعلى هذا النحو أخرج ديكارت من الشك نفسه هذا اليقين : أنا قائم (أو موجود) باعتبارى كائنا مفكرا • وهذا الاستدلال مقصور على التعبير عن حدس مباشر •

والنفس تعرف ببداهة ، بينما العالم الخارجى ، والجسم جزء منه ، لا يزال مشكوكا فيه : فالنفس اذن متميزة عن الجسم وتستطيع أن تبقى بعد فنائه • وهذا « الأمل الجميل » هو قصارى ما تستطيع الفلسفة أن تزودنا به [illegible] حال

النفس بعد الموت هو موضوع اعتقاد لا برهان عليه •

ويمضى الفيلسوف باحثاً عن بداهات أخرى • خطر له أن المعرفة أكمل من الشك ، فستكشف فى نفسه فكرة الكمال • واعتمادا على هذه الفكرة شرع فى اثبات وجود « الكائن الكامل » ، أى الله • أولا ، « فكرة الكامل » يجب أن يكون لها علة ، ولا بد أن يكون فى العلة من الوجود الواقعى على الأقل قدر ما فى المعلول : فهذه الفكرة اذن لا يمكن أن تجىء من الذهن الناقص • ولا بد أنها وضعت فينا ، وضعها كائن كامل • وأيضا أنا الكائن الناقص الذى فى نفسه فكرة الكامل ، من أوجدنى ؟ لو أننى أوجدت نفسى لكنت منحت نفسى جميع صفات الكمال التى لدى فكرة عنها • وليس الأمر كذلك • واذن فأنا لم أوجد نفسى ، وانما أوجدنى الكائن الذى وضع فى فكرة الكامل ، أى أوجدنى الكائن الكامل • ـ والدليل الثالث على وجود الله أطرف هذه الأدلة جميعا ، وان يكن قد سبق اليه القديس « أنسلم » : « لما عدت الى النظر فى الفكرة التى كانت لدى عن الكائن الكامل ، وجدت أن الوجود متضمن فيها على نحو ما يكون متضمنا فى فكرة المثلث أن زواياه الثلاث مساوية لقائمتين ••• بل على نحو أكثر بداهة » • فالله ، بالتعريف ، هو الكائن الكامل الذى يملك جمع ضروب الكمال؛ بيد أن الوجود كمال، واذن فالله موجود ـ ويطلق اسم « الدليل الانطولوجى » على ذلك الدليل الذى يستخرج من ماهية الله ذاتها توكيد وجوده •

وهذه الأدلة لا يعمد اليها الا لايصال « حدس » ، الى الآخرين ، حدس أعمق من حدس « الكوجيتو » حدس الكائن الكامل ، الكائن اللامتناهى • « وانى أرى بجلاء أن الجوهر اللامتناهى فيه من الوجود الواقعى أكثر مما فى الجوهر المتناهى• وبناء على ذلك أجد على نحو ما أن فكرة اللامتناهى سابقة لدى على فكرة المتناهى ، أى أن ادراك الله سابق على ادراك نفسى • الله مالك لجميع ضروب الكمال ؛ هو ارادة لا متناهية ، وعقل لا متناه ، وهو واسع كريم ، وكرم الله يمنعه من أن يضللنا : فلا يمكن أن يكون قد أعطانا من الحواس مايخدعنا على الدوام • و « الصدق الالهى » يبرر الاعتقاد بوجود العالم الخارجى : فهذا العالم خلقه الله ؛ وبقاؤه بفضل منه ، لأن الفعل الخالق « قديم » أى تم منذ الأزل • وبقاء العالم انما هو خلق متصل •

والآن نستطيع أن ندرس عالم الأجسام وعالم النفوس : « الفلسفة كلها كشجرة جذورها الميتافيزيقا ، وجذعها الفيزيقا ، والفروع التى تخرج من هذا الجذع هى جميع العلوم الأخرى التى تنتهى الى ثلاثة علوم رئيسية ، هى الطب والميكانيكا والأخلاق ، أقصد الأخلاق الأرفع والأكمل التى لما كانت تفترض معرفة تامة بالعلوم الأخرى ، فقد بلغت المرتبة الأخيرة من مراتب الحكمة » •

(هـ) الفيزيقا : فيزيقا ديكارت مبسوطة فى كتاب « العالم » ، وكذلك فى صورة محجوبة بعض الشيء فى القسمين الخامس والسادس من « المقال » ، وفى عدة أبواب من « المبادىء » • والقسم الأول من الكتاب الأخير وعنوانه «مبادىء المعرفة البشرية » يحوى على التقريب مايحويه

كتاب « التأملات » وفى القسم الثانى ، وعنوانه « مبادىء الأشياء المادية » يبين فيه لم يعتبر الأجسام الا مادة ممتدة طولا وعرضا وعمقا ولم لم يعتبر فى تغيراتها المتعاقبة الا حركات خاضعة لبعض قوانين بسيطة جدا • وعنوان الجزء الثالث « فى عالم الحس » وهو بحث فى الميكانيكا السماوية يصف فيه حركة الأرض والكواكب الأخرى حول الشمس ••• وعنوان الجزء الرابع « فى الأرض » ويفسر فيه الثقل والمد والجزر وخواص المغناطيس ••• الخ • وينفى الجاذبية بين الأجسام ، لأن فكرة الجاذبية فكرة مبهمة •

ويريد ديكارت فى فيزيقاه على العموم أن يستعيض عن المعطيات الحسية ببداهات عقلية : ومن هنا رأينا عنده هندسة وقد أصبحت فرعا من الجبر ، وفيزيقا وقد أصبحت فرعا من الرياضة• وان قطعة الشمع اذا سخنت تفقد جميع خواصها ما عدا الامتداد • « ولنأخذ مثلا هذه القطعة من شمع العسل : لقد أخذت لتوها من الخلية ، فلم تذهب عنها بعد حلاوة العسل الذى كان فيها • وما زالت بها بقية من أريج الزهور التى اقتطفت منها ؛ لونها وحجمها وشكلها أشياء ظاهرة للعيان وهى جامدة وباردة ، ويسهل عليك أن تتناولها باليد ؛ واذا نقرت عليها خرج منها صوت ؛ وعلى الجملة نجد فيها جميع الأشياء التى تجعلنا نعرف الجسم معرفة متميزة • ولكن ها هى ذى قد اقتربت من النار وأنا أتكلم • فماذا أشاهد ؟ تتلاشى بقية طعمها وتذهب رائحتها ، ويتغير لونها ويذهب شكلها ، ويزيد حجمها ، وتصبح من السوائل ، وتسخن حتى يكاد يصعب لمسها ، ومهما نقرت عليها فلن ينبعث منها صوت• أما تزال الشمعة باقية بعد هذه التغيرات كلها ؟ لا بد من التسليم بأنها باقية ولا أحد يستطيع أن ينكر ذلك أو يحكم حكما مخالفا ••• ولننظر فى الأمر بامعان : لنستبعد كل ما ليس من خواص الشمعة ، لنرى ما يتبقى بعد ذلك • لا يبقى حقا الا شىء ممتد لين متحرك ••• » والآن ما ذلك الامتداد ؟ أليس هو غير معروف أيضا ؟ لأنه يزيد عند ذوبان الشمعة ، ويزيد عند غليانها ، ويزيد أيضا بزيادة حرارتها ؟ « فأنا لا أتصور ماهية الشمعة تصورا واضحا مطابقا للحقيقة ان لم أفترض أن هذه القطعة التى نحن بصددها قابلة لأنحاء شتى من الامتداد لم تخطر على خيالى • واذن فلا بد من التسليم بأنه ليس فى مقدورى أن أدرك بالخيال ماهية هذه القطعة من الشمع ، وانما الذى يدركها ذهنى وحده » •

واذن فالامتداد ، وهو معطاة واضحة متميزة ، هو ماهية المادة ؟ ؛ المادة لها جميع خواص الامتداد ؛ والعالم بلا حدود ، وبلا عناصر ، ومتصل • فى هذا الفضاء الملاء ، كل حركة دائرية : هذه نظرية « الدوامات » • وفى هذا الكون الذى خلقه الله الصمد الذى لايتغير، تبقى كمية الحركة بلا نقصان • والنبات ، بل الحيوان نفسه ، ليس الا آلات (ماكينات) • وكل مشكلة فيزيقية يجبأن تأخذ مظهر مشكلة رياضية • ويوما سيكون كل العلم عبارة عن رياضة شاملة •

وهذه الفلسفة العملية ، وهى المختلفة كل الاختلاف عن الفلسفة النظرية التى ظلت تعلم فى المدارس حتى وقت ديكارت ، ستجعل الناس آخر الأمر « سادة على الطبيعة مالكين لها» : ذلك أننا اذا عرفنا بها ما للنار والماء والهواء والكواكب

والسموات وكل الاجرام الاخرى التى تحيط بنا من قوة وأثر معرفه متميزة كما نعرف مهن صناعنا المختلفة ، فاننا نستطيع استعمالها بنفس الطريقه فى كل المنافع التى تصلح لها •

(و) النفس : اما فيما يتعلق بالنفس فان ديكارت يفرق بين الفكر بما هو منفعل ، اى الذهن ، والفكر بما هو فاعل ، اى الارادة • وهو يقابل فى الذهن بين « الأفكار العارضه » التى تجيء من الخارج (أى المعطيات الحسية) و « الافكار المصطنعة » التى يبتدعها الخيال ، وبين « الافكار المفطورة » التى أودعها الله فينا : كالفكر ، واللامتناهى ، والكامل ، والأوليات الرياضية • ولكنه يفسر ذلك بأنه سمى هذه الأفكار « مفطورة » على معنى ما نقول بان السخاء مفطور فى بعض العائلات أو أن أمراضا مختلفة مفطورة فى عائلات أخرى • ولا نعنى بذلك أن الاطفال مصابون بهذه الامراض فى بطون أمهاتهم ، بل انهم يولدون وبهم استعداد لها » •

والارادة عند ديكارت هى القدرة على الاختيار الحر • ولقد ناصر ديكارت حرية الارادة الانسانية مناصرة صريحة لا مواربة فيها • اننا نعرف حرية ارادتنا بتجربة داخلية دون حاجة الى شهادة من الخارج • والارادة هى القدرة على الحكم أيضا : لأن الحكم يتضمن اختيارا بين قول ايجابى وقول سلبى • واذن فنحن المسئولون عن أخطائنا : اننا نخطىء حين نريد أن نحكم قبل أن نتثبت ، وقبل أن يكون لدينا نور كاف ييسر لنا وضوح الرؤية• والخطأ أشبه بمعركة خسرناها ؛ فى حين أن بلوغ الحقيقة يمثل انتصار ارادتنا على جحافل الظلام •

وفى النفس تنشأ أحوال وجدانية ، سببها تغيرات تلم بالجسم ، وحركات « أجزاء من الدم رقيقة جدا ، يسميها الفيلسوف ب « الارواح الحيوانية » • وقد عكف على دراسة هذه الأحوال الوجدانية فى رسالته عن « انفعالات النفس » ؛ ففسرها تفسيرا يمكن أن نطلق اليوم عليه اسم التفسير «السيكوفيزيولوجى» • وضرب لذلك مثلا انفعال « الحب » ، وفيه تكون «دقات النبض أكثر وأشد مما هو معتاد ، ويحس الانسان حرارة رقيقة فى الصدر ، ويتم هضم اللحوم فى يسر ؛ ولذلك كان هذا الانفعال نافعا لصحة الانسان » •

وقد ميز ديكارت فى النفس ستة انفعالات أساسية هى قوام سائرها : « الاعجاب » (أى الدهشة المثيرة للانتباه) ؛ و « الحب » وقوامه الجاذبية ؛ و « البغض » وقوامه النفور ؛ و « الرغبة » المتجهة الى المستقبل ؛ و « الفرح » الناشىء من ارضاء الرغبة ؛ و «الحزن» ومصدره عدم ارضائها •

(ز) الأخلاق النهائية : ولا بد ، اتماما وتتويجا للفلسفة الديكارتية ، من ظهور أخلاق نهائية « تفترض معرفة تامة بالعلوم الأخرى » • وقد كانت الأخلاق هى الشغل الشاغل لهذا المفكر صاحب الرسالة الانسانية على الأصالة ، والذى عرف الفلسفة وفقا لتعريف القدماء بأنها دراسة الحكمة • واذا كان الفيلسوف قد رحل عن هذا العالم قبل أن يتاح له أن يكتب هذه التتمة المنطقية لمذهبه ، فان الباحث المدقق يستطيع أن يهتدى الى عناصرها المتفرقة فى كتاب «انفعالات النفس » ، وفى كثير من رسائله الى الأميرة اليزابث ، والى كريستين ملكة السويد ، والى شانو سفير فرنسا لدى هذه الملكة •

والأخلاق النهائية ما كانت لتعارض الأخلاق المؤقتة ، لأن المقصود من كل منهما أن تيسر للانسان أن يحيا حياة « سعيدة » بقدر ما فى الامكان • ولكن القاعدة الأولى من الأخلاق المؤقتة لم يعد لها الآن مسوغ أو سبب وجود ، ما دام قد أصبح فى مقدورنا أن نستعيض عن التقاليد المرعية بالحقائق العقلية التى أقامتها الميتافيزيقا• أما القاعدتان التاليتان ـ والهمهما من نفحات الرواقية ـ فمقدر لهما البقاء والحفاظ عليهما فى الاخلاق النهائية : لان فكرة ارادة قوية ، مصممة على صون استقلالها عن الظروف الخارجية ، فكرة خليقة أن تظل مبدأ ثابتا من المبادىء الأساسية • وكل ما فى الأمر أن العلم يزودنا فى المستقبل بوسائل للعمل كانت تنقصنا فيما مضى من الزمن • ودراسة الانفعالات دراسة علمية تتيح لنا أن نستيقن من أن الانسان يستطيع دائما أن يسيطر على انفعال ما بمعارضته بانفعال آخر (مثال ذلك معارضة الخوف بالطموح) ، أو يستطيع أن يوجه الخيال الى اتجاه مضاد للانفعال المستنكر (ومثاله أن يخطر ببالنا « أن الأمان فى الدفاع والصمود أكثر منه فى الهرب أو النكوص » ؛ وأن الكرامة والفرح موفوران فى الانتصار ، « فى حين أننا لانجنى من التخاذل والفرار غير الندم والعار ! • » •

ويمضى ديكارت فى تخيله الملهم لعواطف الانسان وانفعالاته فيسوقنا الى هذه النتيجة المستبشرة المشجعة اذ يقول : « ان الناس العاديين ، بل ان أضعفهم نفساً وأوهنهم جأشاً يستطيعون هم أيضا أن يكتسبوا سلطانا واسعا جدا على انفعالاتهم جميعا ، لو أننا عرفنا السبيل الى استخدام الحيلة فىتقويمهم وحسن قيادتهم» •

وأكثر من هذا ، حين يصير الطب فى المستقبل أكثر تقدماً مما هو عليه الآن ، حينئذ يتيسر للانسان العارف أن يهيمن على الأذهان والأفكار عن طريق الأبدان : « فان الذهن يعتمد اعتمادا كبيرا على المزاج وعلى استعداد أعضاء البدن ، بحيث أنه اذا كان من الممكن أن نجد وسيلة تجعل الناس على العموم أحكم وأبرع مما كانوا حتى اليوم ، فعتقدى اننا يجب أن نلتمسها فى الطب دون سواه » •

وفكرة أخرى رئيسية فى الأخلاق النهائية هى فكرة « الاريحية » : وقد درسها ديكارت فى رسالة «الانفعالات» ودعا اليها فى «المراسلات»• والاريحية ـ أو كرم النفس ـ هى « مفتاح الفضائل الاخرى جميعا » • ان الرجل الأريحى يجعل ارادته الحرة فى خدمة المجموع : «يجب على الانسان أن يفكر فى أنه لا يستطيع أن يعيش أو أن يبقى وحده ، وأنه فى واقع الأمر جزء من أجزاء الكون ، وبوجه أخص جزء من أجزاء هذه الأرض ، وجزء من أجزاء هذه الدولة ، وهذا المجتمع ، وهذه الأسرة التى ارتبط بها بمسكنه وبعهده وبمولده • ويجب علينا دائما أن نؤثر مصالح الكل الذى نحن جزء منه على مصالح أشخاصنا » •

والأريحى يحب الله حبا قوامه الاذعان التام لارادته ، والشكر المبتهج على نعمته • وهو يبدى حبه لخالقه ، بالاعجاب ببديع صنعه ، والتأمل فيما أودعه فى العالم من انسجام • والسعى الى استكشاف حقائق الكون وأسراره •

٣ ـ « المقال فى المنهج » * :

(*) انظر الترجمة العربية للمرحوم الاستاذ محمود الخضيرى • القاهرة ١٩٣٠ •

(ا) تحليل « المقال » :

يقع « المقال » فى ستة أقسام : فى القسم الاول انظار فى العلوم مختلفة : وفى الثانى قواعد المنهج : وفى الثالث بعض قواعد الاخلاق التى استنبطها المؤلف من ذلك المنهج : وفى الرابع الادلة التى يثبت بها وجود الله والنفس الانسانية : وفى الخامس ترتيب مسائل الطبيعيات وفى القسم السادس بيان للامور المطلوبة فى نظر المؤلف للسير بدراسة الطبيعة الى أبعد مما انتهت اليه ، وبيان الأسباب التى دعته الى الكتابة .

(١)

وقد استهل ديكارت كتابه ببيان قصده من نشره « ان ما يوقع أشد الخلاف بين الناس ليس هو تفاوتهم فى الذكاء ، لأن العقل أو الذوق السليم يكاد يكون واحداً عند الجميع — بل ان الخلاف ناشىء من توجيه الناس لأذهانهم ، أى من المنهج الذى يتبعونه فى تفكيرهم أو فى حياتهم : فليس يكفى أن يكون للانسان قريحة جديدة ، بل الأهم أن يستعملها استعمالا جيداً » .

ويحدثنا الفيلسوف بهذا الصدد عن نفسه ، فيقول ان التوفيق قد حالفه فاهتدى الى منهج حقق له نتائج باهرة ؛ ومن أجل هذا أراد أن يكشف للناس عنه وأن يحيطهم به خبرا . وهو لا يريد أن يفرضه على الناس فرضا ، وانما أراد أن يقترحه لهم مثلا يحتذى ، و « أن يمثل حياته فيه كأنها فى لوحة تصوير ، لكى يتيسر لكل واحد أن يحكم فيها حكمه » .

وفى القصة التى رواها بعد ذلك عن وجوده العقلى أخذ يبين أنه لما كان مولعا بالبحث عن الحقيقة ، فقد التمسها أولا فى الكتب ، وفى العلوم التى يعلمونها فى المدارس ، فلم يجد لها أثرا . وليس مرجع ذلك الى أن هذه العلوم قد خلت من الميزات والجوانب الطيبة ، فقد أخذ يستعرضها أمام القارىء مبينا ما فيها من فوائد . فقال : ان اللغات ضرورية لفهم كتب القدماء : والأساطير بما فيها من براعة الخيال توقظ الأذهان : والتاريخ متى قرأناه بقدر من الاحتياط يعيننا على تكوين ملكة الحكم . وقراءة المؤلفين الجيدين أشبه بحديث مع أفضل أهل القرون الماضية ؛ بل هو حديث مدروس موصول لا يكشفون فيه الا عن أحسن خواطرهم وأفكارهم . وللفصاحة قوة وجمال لا نظير لهما ؛ وللشعر فنون من الرقة والملاحة رائعة ؛ وللرياضيات اختراعات بارعة جدا يمكن أن تستخدم لتيسير جميع الفنون ؛ وكتب الأخلاق تحتوى على تعاليم نافعة جدا ، واللاهوت يعلم السبيل الى الفوز بالجنة ، والفلسفة تعطى الوسيلة للتكلم عن جميع الأشياء كلاما شبيها بالحق ، وتجعل الانسان يحظى باعجاب من هم أقل علما ، والفقه والطب يجلبان الجاه والمال لمن يشتغلون بهما ، وأخيرا من الخير أن نعرف أشد العلوم اغراقا فى الخزعبلات وأكثرها زيفا لكى نتحرز من الانخداع بها .

ولكن مهما يكن من منفعة هذه العلوم من وجهات النظر العديدة هذه ، فهى غير كافية لمن يلتمس الكشف عن الحقيقة . ولكى يبين لنا ديكارت ذلك أعاد النظر فيها على الترتيب، فقال: ان الانسان لا يستطيع أن يقضى حياته فى مطالعة كتب قديمة أو قراءة حكايات ؛ كما لا ينبغى أن ننفق فى السفر والارتحال وقتا أطول مما يلزم؛ والتاريخ الذى لا يمثل الماضى كله أبدا ، بل يضرب صفحا بالضرورة عن الظروف الوضيعة والأقل تألقا ، من شأنه اذا أسىء استعماله أن

يفسد الحكم ؟ والشعر والفصاحة ليسا ثمرات للدرس بقدر ما هما موهبتان من مواهب الطبيعة؛ والعبقرية ضرورية للنبوغ فيهما ، وهي كافية حتى لو لم يعرف الانسان غير اللغة العامية الدارجة • أما الرياضيات فلم يكن ديكارت قد رأى بعد استعمالها الصحيح ، وأظهر العجب من أن أحدا لم يبن على أسس بهذه المتانة شيئا ذا قيمة • وكتب الأخلاق كقصور فخمة أقيمت على الرمال والطين : فهي تشيد بالفضائل ولكنها لا تبين لنا كيف نعرفها ، وتقدم لنا غالبا أمثلة لا سبيل الى احتذائها • واللاهوت ليس مما لا يمكن الاستغناء عنه للفوز بالآخرة ، وأجهل الناس ، كأعلمهم ، يخوضون فيه • وأخيرا ما من شيء في مجال الفلسفة الا وهو عرضة للنقاش والنزاع : واذا تعددت الآراء المتناقضة استحال أن تكون كلها صحيحة • أما العلوم الأخرى فمن حيث أن مبادئها معتمدة على الفلسفة فلا يمكن أن تكون أمتن من الفلسفة نفسها •

ولما عز عليه أن يجد الفلسفة في الكتب التمسها في غيرها ، « في الكتاب الكبير ، كتاب العالم » ، فشرع في الأسفار وفي رؤية بلاط الملوك ومعسكرات الجيوش ، وفي مخالطة أناس من مختلف المشارب والطبقات • ولكنه لم يجد في شيء من ذلك بغيته : لأنه لاحظ من الاختلاف بين أخلاق الناس مثل ما لاحظ من اختلاف بين آراء الفلاسفة • ولكنه ربما أفاد من أسفاره فائدة غير مباشرة ، لأنه اذا لم يكن قد اهتدى الى الحقيقة فقد تخلص على الأقل من أوهام كثيرة ومسبقات مشهورة ، فان كثيرا من الأشياء التي تبدو لنا شططا وسخفا لا تخلو من أن تكون ذائعة مقبولة لدى شعوب أخرى كبيرة • فتعلم من هذه التجربة أن لا يؤمن أيمانا راسخا بما لم يتلقه الا عن طريق التربية والعادات ، وأن لا يولي ثقته شيئا سوى العقل •

وبعد هاتين المحاولتين – غير المثمرتين – قرر الفيلسوف أن يلجأ الى محاولة ثالثة : أن يدرس في نفسه ، وأن يطلب السبل التي كان لا بد له من أن يسلكها • وهذا ما قد وفق فيه أكثر مما كان يوفق لو أنه لم يبتعد قط عن وطنه ولا عن كتبه •

(٢)

حين بدأ ديكارت النظر في كتاب العالم لاحظ أولا أن الأعمال ذات الأجزاء الكثيرة التي صنعتها أيدي صناع مختلفين تكون غالب الأمر أقل كمالا من الأعمال التي صنعها رجل واحد • والأعمال التي بدأها وأتمها مهندس واحد تكون عادة أجمل منظرا وأحسن نظاما من تلك التي اشترك في ترقيعها الكثيرون ، مستخدمين الجدران القديمة التي بنيت من قبل لأغراض أخرى • والمدن المنظمة التي يخططها معماري واحد وهو حر في براح خال تكون في العادة أجمل تأليفا من المدن العتيقة التي كانت في البداية قرى منثورة ثم صارت بتعاقب السنين مدنا كبيرة • واذا كان لاسبرطة تشريع أكمل من تشريع الشعوب الأخرى فالسبب في ذلك أنه كان من صنع مشرع واحد ، لا خليطا من أعمال مشرعين عديدين • من أجل ذلك « كان طبيعيا أن يخطر لي أن خير وسيلة لوضع نظام محكم في العلوم والاقتراب بقدر الامكان من الحقيقة ، هي أن نعيد بناء العلم كله ، وأن نترك الآراء التي تكونت شيئا فشيئا من مختلف الميول والأنحاء ، لكي نجمع في كل متراص الحقائق التي يستطيع

رجل واحد ذو ذهن سليم أن يستكشفها بنفسه.

غير أن بعض الصعوبات تواجهنا هنا ، فإن من الخطر أن نقلب ما هو قائم قبل أن نستوثق مما سيقوم من بعده. ولا جرم أن يكون هذا المنحى وخيم العواقب لو أننا اتبعناه في أمور السياسة ، وأردنا أن نصلح الدولة فقلبناها رأسا على عقب لكي نقيمها من جديد . ويسارع ديكارت الى التنبيه الى أن شيئا من هذا القبيل لم يخطر له على بال ، ويقول : «لم أكن لأقر اطلاقا تلك الامزجة القلقه المضطربة التي لم يؤهلها نسب ولا مكانه لتدبير الشئون العامه ، وهي لا تبرح تعمل الفكر في وضع خطط جديدة للاصلاح . ولو تبادر الى ذهني أن في هذا الكتاب شيئا يمكن أن يلحقني منه شبهة هذا الجنون لندمت ندما كثيرا على الترخيص بنشره » .

ويؤكد لنا ديكارت أنه ، حتى في مجال العلم ، لم يكن ليخطر على باله أن يتصدى للاصلاح قط لو أنه وجد من العلماء من هم أقدر منه . ولكنه مع الأسف الشديد وجد بين أهل العلم من الاختلاف في الآراء ما يجعل من المستحيل علينا أن نتبين من منهم هو أجدر بالاستماع اليه . وليس بمقدورنا كذلك أن نعتمد على الذوق السليم ولا على العادات الجارية ولا الآراء الشائعة بين الناس « فان موافقة الكثرة ليست دليلا ذا شأن على الحقائق التي يعسر كشفها ويدق فهمها . والأقرب الى الاحتمال أن يجدها رجل واحد من أن تجدها أمة بأسرها » . واذن فقد قرر ديكارت أن يتولى بنفسه اصلاح الفلسفة .

ولكن مشروعا كهذا يتطلب قدرا من الاحتياط كبيرا . ويجدر بنا أن نحاذر من السير بأسرع مما ينبغي ، وأن نحرص على أن لا نخطو خطوة الا ونحن على بينة من أمرنا . وبعبارة اخرى يجب علينا أن نستوثق من اعتمادنا على منهج سليم . وهذا المنهج قد استفاده ديكارت من المنطق ومن تحليل أصحاب الهندسة ومن الجبر : فاستخلص اربع قواعد تشتمل على ميزات العلوم الثلاثه وتخلو من عيوبها . والقواعد الاربع تنص على ما يلي :

(١) « أن لا أقبل شيئا قط على أنه حق مالم أتبين بالبداهة أنه كذلك ، بمعنى أن أبذل الجهد في اجتناب التعجل وعدم التشبث بالاحكام المسبقة ، وأن لا أدخل في أحكامي الا ما يتمثل أمام ذهني في وضوح وتميز يزول معهما كل شك ».

(٢) « أن أقسم كل واحدة من المعضلات التي أبحثها ما استطعت الى القسمة سبيلا ، وبمقدار ما تدعو الحاجة الى حلها على أحسن الوجوه » .

(٣) «أن أرتب أفكاري ، فأبدأ بأبسط الأمور وأيسرها معرفة ، وأتدرج رويدا رويدا حتى أصل الى معرفة أكثر تعقيدا، بل أن افرض ترتيبا بين الامور التي لا يسبق بعضها البعض الاخر بالطبع » .

(٤) « أن أعمل في جميع الأحوال من الاحصاءات الكاملة والمراجعات الوافية ما يجعلني على ثقة من أنني لم أغفل شيئا يتصل بالمشكلة المعروضة للبحث » .

وبعد أن اهتدى ديكارت الى هذا المنهج شرع في تطبيقه على الرياضيات لكي يختبره ويتدرب عليه . وأثمر هذا التطبيق أحسن النتائج ؛ وسرعان ما صار مألوفا لديه .

وقبل أن يشرع في تطبيقه على الفلسفة رأى أن ينتظر حتى يبلغ من العمر سنا أنضج من سنه يومئذ وكانت ثلاثة وعشرين عاما . وبعد أن عكف على دراسات طويلة انتهى به المطاف الى حل المشكلات العويصة ، مشكلات الميتافيزيقا .

(٣)

ومع ذلك فليس من الحكمة أن نهدم دارنا قبل أن نبدأ في اعادة بنائها ، بل يلزمنا أن نزود أنفسنا بدار أخرى نستطيع أن نسكنها سكنا مريحا ابان الوقت الذى نشتغل فيه باعادة البناء . وقياسا على هذا ولكيلا يكون الفيلسوف مترددا في أفعاله حين يضطره العقل الى تعليق أحكامه ، رأى أن يضع لنفسه مذهبا أخلاقيا يصطنعه بصفة مؤقتة ، وقوام هذا المذهب ثلاثة أو أربعة مبادىء :

الأول : أن أطيع قوانين بلادى وعاداتها ، مستمسكا على الدوام بالدين الذى نشأت عليه بفضل من الله منذ طفولتى . وأن أدبر أمورى في كل شىء آخر وفقا لأكثر الآراء اعتدالا وأبعدها عن الشطط ، والتى أجمع على الرضى بها في العمل أعقل الناس الذين يتعين على أن أعيش بينهم .

الثانى : أن أكون أكثر ما أستطيع حزما وتصميما في أعمالى ، وأن لا يكون استمساكى بأشد الآراء عرضة للشك ، اذا ما صحت عزيمتى عليها ، أقل ثباتا مما لو كانت من أشد الآراء وضوحا . وأحتذى في هذا مثل المسافرين الذين يجدون أنفسهم قد ضلوا في بعض الغابات ، عليهم أن لا يضربوا فيها التواء ، ها هنا مرة وها هنا مرة أخرى . وشر من هذا أن يقفوا في مكان واحد لا يبرحونه ، ولكن عليهم أن يسيروا دائما أكثر ما يستطيعون استقامة نحو جهة واحدة ، وأن لا يغيروا اتجاههم لأسباب واهية ، ولو لم يكن الا مجرد اتفاق هو الذى جعلهم أول الأمر يصممون على اختياره . لأنهم على هذا النحو ان لم ينتهوا الى حيث يرغبون فهم يبلغون على الأقل بعض الأماكن التى يرجح أن يكونوا فيها خيرا منهم لو ضلوا في وسط غابة .

الثالث : أن أبذل جهدى دائما في أن أغلب نفسى بدلا من أن أغالب المقادير ، وأن أغير ما بنفسى من رغبات لا أن أغير نظام العالم . وبالجملة أن أتعود الاعتقاد بأننا لا نقدر الا على أفكارنا قدرة تامة ؛ بحيث أننا اذا فعلنا خير ما نقدر عليه ، فيما يتعلق بالأمور الخارجة عنا ، فان كل ما ينقصنا بعد ذلك من أسباب النجاح ، هو بالنسبة الينا مستحيل على الاطلاق . فلا أرغب الا فيما هو ممكن ، وأذعن لما لا بد من وقوعه .

وفي خاتمة هذه الأخلاق ، استعرض ديكارت مختلف مشاغل الناس في هذه الحياة ، فلم يجد أفضل من المشاغل التى أقبل عليها : دراسة الفلسفة ؛ واذن فهو يمضى في التمرس على تطبيق منهجه ، وهو واجد في ذلك بالغ الرضى .

وبعد أن أتم له ذلك ، بدا له أن يشرع في التخلص من الآراء التى تلقاها واعتنقها من قبل . وقضى تسع سنوات ، مخالطا الناس ، جوابا هنا وهناك في العالم ، محاولا أن يكون « متفرجا » على جميع المهازل التى تمثل فيه . وأخذ يستأصل من ذهنه جميع الأخطاء التى استطاعت أن تتسلل اليه من قبل . وهو يقول بهذا الصدد : « لم أكن في ذلك مقلدا الشكاك الذين لا يشكون الا من أجل الشك والذين يتكلفون أن يظلوا

حيارى • فقد كان مقصدى على عكس ذلك أن أستوثق ، وأن أدع الأرض الرخوة والرمل لكى أجد الصخر والصلصال » •

ومع أن ديكارت لم يكن قد عكف بعد على مسائل الفلسفة بمعناه الدقيق ، فقد ذاعت عنه أنباء تفيد أنه قد حقق كشوفا علمية عظيمة • ولكنه لما كان من الشمم وعزة النفس بحيث يأبى أن يحسبه الناس على ما ليس عليه ، فقد أراد أن يعمل لكى يكون أهلا لما بلغ عند الناس من حسن السمعة والصيت • فقرر ان يعتزل الناس فى هولندا • وبعد سنوات من البحث والخلو الى النفس نشر الحقائق الأساسية فى الميتافيزيقة •

(٣)

(١) واذ صمم ديكارت على أن يبحث عن حقائق لا تتزعزع ، قرر أن يطرح كل ما يمكن أن يتخيل فيه أدنى شك • ولذلك فقد نبذ ما عرفه عن طريق الحواس : لأن الحواس تخدعنا أحيانا • بل انه اطرح القضايا الرياضية، لأن الانسان يقع أحيانا فى متناقضات منطقية ، حين يحاول البرهنة عليها • واطرح أخيرا جميع الخواطر التى وردت الى ذهنه ، لأنه يحدث لنا أن ترد على أذهاننا هذه الأفكار عينها فى الحلم كورودها فى اليقظة ـ وهذا ما يسمى « بالشك المنهجى » •

(٢) ولكن فى اللحظة التى يفكر فيها بأن كل شىء زائف تقوم فى وجهه عقبة • هذه القضية : « أفكر • فأنا اذن موجود » هى من الوثوق والرسوخ بحيث أن جميع افتراضات الشكاك لا تستطيع أن تزعزعها : فيلزم أن يكون هو ، الذى يفكر ، موجودا ـ هذا هو المبدأ الأول للفلسفة التى يطلبها •

(٣) انه قائم لأنه يفكر ، وهو لا يكون الا من حيث أنه يفكر • اذا وضعنا الفكر ، حتى بغير البدن ، فقد أعطينا الوجود معه • ولو حذفنا الفكر ، حتى لو تركنا البدن ، فقد اختفى وجود الأنا • وبعبارة أخرى ، النفس يمكن أن توجد بدون البدن ، انها متميزة عن البدن • ـ « انى جوهر كل طبيعته أو ماهيته ليست الا التفكير » والنفس معرفتها أيسر من معرفة البدن •

(٤) أما وجد ديكارت قضية يقينية أخذ يتساءل بأى علاقة نستطيع أن نتبين على العموم أن قضية ما هى يقينية • ليس هناك من قاعدة أخرى غير هذه : الأشياء التى نتصورها تصورا واضحا جدا ومتميزا جدا هى كلها حقيقية ، وانما هناك صعوبة فى ملاحظة أيها نتصوره تصورا متميزا • ـ هذا هو معيار الحقيقة •

(٥) وقد لاحظ ديكارت أن الشك نقص ، ولكن من أين عرف شيئا أكمل منه ؟ فكرة الكمال هذه لا يمكن أن تأتى اليه من الحواس• لأن الأفكار التى من هذا القبيل ، أفكار الضوء والحرارة ، ليس فيها شىء يجعلها أعلى منه : ويفسر حضورها بواسطة طبيعة ذهنه أو كماله • ولكن فكرة الكامل التى تجاوزه لا يمكن أن تجىء منه : ويكون مخالفا للعقل أن نقول انها تأتى من العدم • واذن فمن أين تأتى ؟ لم يبق الا أن نقول انها قد وضعت فى ذهنه بواسطة طبيعة أو كائن يملك حقا كل الكمال الذى تكون لديه فكرته • أى بواسطة الله •

(٦) وقد أضاف ديكارت الى هذا الدليل على وجود الله دليلا ثانيا • انه موجود ولكنه لم يستطع أن يعطى نفسه الوجود ، لأنه لو كان

أعطى نفسه الوجود لكان أعطى نفسه فى الوقت نفسه جميع الكمالات التى تخطر بذهنه : فهو معتمد اذن على كائن آخر لا يكون هو نفسه معتمدا على شىء ، أى هو الله • ــ من هذا نتج وسيلة لتحديد صفات الله : يكفى فى جميع الاشياء التى له عنها فكرة أن ينظر هل امتلاكها كمال ام لا • لا شىء مما يدل على نقص يمكن أن يكون فى الله • وينتج عن هذا ان الله لامتناه، باق ، ثابت ، قدير ، لا مادى الخ •

(٧) ودليل ثالث على وجود الله • يقين الحقائق الرياضية ليس قائما الا على ان تصورها بداهة • لو اخذنا فكرة المثلث لوجدنا متضمنا فيها ، ونراه بوضوح ، انه يجب ان تكون الزوايا الثلاث مساوية لقائمتين • فاذا اخذنا فكرة الكامل رأينا بوضوح كذلك ان الوجود متضمن فيها • لان الوجود أليس كمالا ؟ ــ ما تتضمنه فكرة المثلث ليس هو الوجود (لان من الممكن ان لا يكون هنالك مثلث فى الواقع) ، بل خصيصة وهى ان يكون له زوايا ثلاث مساوية لقائمتين • وبالعكس فكرة الكامل لها هذه الميزة وهى انها تتضمن الوجود نفسه لامجرد حال من الأحوال• واذن فالله كائن او موجود على نحو لا يقل يقينا عما يمكن أن تكونه براهين الهندسة •

(٨) اذا كان هنالك أناس ليسوا مقتنعين بهذه الحجج ، فيجب أن يتعلموا من ديكارت أن الأشياء الأخرى التى يعتقدون فى أنفسهم أنهم أكثر استيثاقا منها ان لهم أبدانا وأن هنالك نجوما وأرضا هى فى الحقيقة أمور أقل يقينا • فلنا فى الأحلام عين ما لنا فى اليقظة من أفكار ، فمن أين نعرف أنها زائفة فى حالة وصحيحة فى حالة أخرى ؟ لا نستطيع أن نفلت من الشك الا اذا افترضنا وجود الله • والقضية التى أخذناها منذ قليل قاعدة لنا وهى [illegible] ما نتصوره بوضوح هو حق ، لا تكون مؤكدة الا لأن الله موجود • ولأن الله كامل فهو لم يرد أن يخدعنا ، ولأنه لم يرد أن يخدعنا نستطيع أن نثق بالافكار التى وضعها فينا من حيث هى واضحة متميزة • وحجية العقل والبداهة هى اذن فى آخر الأمر قائمة على صدق الله ، ولا نستطيع أن نعرف ان العالم موجود ما لم نعرف مقدما أن هنالك الها •

(٥)

يستطيع ديكارت الآن مستعينا بالمبادىء التى وضعها منذ قليل أن يفسر الكون كله • وهذا ما قد حاوله فى رسالته فى العالم أو فى الضوء التى لم تنشر الا بعد وفاته • وفى الحقيقة أن ديكارت لم يقصد أن يفسر كيف تكون العالم فى الواقع تاريخيا : انما أراد أن يبين ما قد كان يمكن أن يحدث لو أن الله أراد أن يخلق المادة من جديد وأن يتركها تتصرف تبعا للقوانين التى أقامها •

سلم أولا بأن المادة خلقها الله ، ولم يقصد بالمادة الا الامتداد ، بغير صورة وبغير أى من الصفات التى تعودنا أن ننسبها اليها • ثم من كمال الله الذى أثبته استنتج قوانين الحركة • ومتى سلمنا بالامتداد والحركة كان علينا أن نفسر ، دون التجاء الى أى مبدأ جديد ، وبغير حاجة حتى الى تدخل الله الا لكى يحفظ على هذه المادة الوجود الذى أعطاها اياه ، أن نفسر كيف تكونت جميع الكائنات التى فى الكون •

بتطبيق قوانين الحركة ، وجب أن يكون للمادة طريقة ما تجعلها شبيهة بالسماوات التى نعرفها ؟ ثم ان بعض أجزائها وجب أن تؤلف

الارض والشمس ، والكواكب • وكذلك يفسر بطريقة آلية ظهور المـاء وظهور الهواء ، ومد البحر وجزره وجميع الأجسام التى نراها على الأرض •

وانتقل ديكارت من وصف الأجسام الجامدة والنبات الى وصف الحيوان ووصف الانسان بوجه خاص • الحياة تفسر ، عنده ، دون أن يكون من الضرورى أن نلجأ الى نفس عاقلة ولا الى نفس نباتية : حركة الأعضاء الآلية تكفى لتفسير جميع الظواهر الخاصة بالكائنات الحية •

لكى يثبت دعواه ، ولكى يضعها فى ضوء ساطع أخذ مثلا : وصف وصفا مستفيضا حركات القلب كما كانت معروفة فى زمانه ، بعد أن اكتشف « هارفى » دورة الدم ، وحرص على أن يثبت أن فى حركاته المعقدة غاية التعقيد لا يوجد شىء لا تستطيع الميكانيكا أن تفسره تفسيرا مضبوطا ، ولا يوجد شىء يفترض فعل مبدأ لا مادى أو فعل نفس من النفوس • كل شىء يتم كما فى آلة متحركة من ذاتها مضبوطة باحكام ؛ ونتيجة للحركات التى وصفها ، وبسبب هيئة الأعضاء ، تحرك الأرواح الحيوانية ، وهى الجزء الأكثر لطافة فى الدم ، وتحمل نحو الرأس ، ومنه تنتشر فى الجسم كله •

وعلى هذا النحو نصل الى نظرية ديكارت عن آلية الحيوان : انها نتيجة للمذهب وهى جزء منه لا ينفك عنه • اذا كانت المبادىء التى وضعها ديكارت صحيحة وجب أن تكون الحيوانات كالساعات تكفى اللوالب والعجلات فى تفسير جميع حركاتها : ليس لها ذهن ولا حساسية • ولكى يبرز ديكارت هذه النتيجة العجيبة التى قاده اليها المنطق عمد الى حجتين : (١) الحيوانات لا تتكلم • ونرى بأمثلة أشد الناس غباء أن قدرا قليلا من الذكاء يكفيهم للكلام •. ولما كانت الحيوانات عاجزة عن اللغة فليس لها اذن ذكاء البتة • وليست أعضاء الكلام هى التى تنقصهم ، فان البيغاء والعقعق (غراب البين) قادرة على اخراج أصوات • (٢) الحيوانات عاجزة عن تنويع أفعالها • فاذا كانت الحيوانات تعمل أشياء كثيرة بقدر من الاتقان يعدل ان لم يكن يزيد على اتقاننا لأعمالنا ، فواضح أنها لا تعملها بالذكاء لأنها عاجزة عن تنويع طريقتها فى العمل • ان خاصية الذكاء بالعكس ، لأن العقل أداة كلية ، هى أن يتكيف مع الظروف ، وأن يستفيد من الحوادث وأن يغير من الطرق التى يستخدمها تبعا لما ينشده من غايات • وما من شك تبعا لديكارت فى أن الآلات المعقدة والمضبوطة باحكام تستطيع أن تؤدى جميع الافعال التى نرى الحيوان يؤديها • « ان الطبيعة هى التى تعمل فى الحيوانات تبعا لاستعداد أعضائها : لذلك نرى أن الساعة وهى التى انما ركبت من عجلات ولوالب تستطيع أن تحسب الوقت وأن تقيسه خيرا مما نستطيع بكل ما أوتينا من حصافة » •

بعد أن بسط ديكارت كل ما يفسر بالامتداد والحركات فقط ، عمد الى النظر فى النفس الناطقة • فدخل هنا فى علم جديد : هنالك انقطاع وفجوة لا يمكن اجتيازها فى سلسلة الكائنات • فالنفس « لا يمكن البتة أن تستخلص من قوة المادة . كما كانت الحال فى الاشياء الاخرى التى تكلمت عنها ، بل لا بد صراحة أن تكون مخلوقة » من الله • ان من أخطر الأخطاء أن نعتقد أن نفوس الحيوانات من طبيعة نفوسنا ، وتبعا لذلك فليس لنا أن [illegible] ولا أن نؤمل فى

شيء بعد هذه الحياة، شأننا كشأن الذباب والنمل. فاذا علمنا بالعكس مبلغ الاختلاف بين هذه وتلك فهمنا أن النفس الانسانية لما كانت من طبيعة مستقلة تمم الاستقلال عن البدن . فهي ليست عرضة لأن تموت معه : والمرء يميل طبعا الى أن يحكم من هنا بأنها باقية لا تموت .

(٦)

في هذا القسم من « المقال » عرض لنا ديكارت على التوالي الأسباب التي كانت لديه أولا لنشر « رسالة الضوء » التي أعطى موجزا منها ، ثم الأسباب التي منعته من نشرها ، وأخيرا الدواعي التي لديه لا يقف القارئ على خلاصتها وأجزاء منها .

أراد أن ينشر كتابه أولا لأن الحقائق التي اكتشفها من الممكن أن تقود الى تطبيقات نافعة ، ولأن اخفاءها اثم كبير في حق القانون الذي يضطرنا الى أن نحصل بقدر ما في وسعنا الخير العام للناس جميعا . يجد القارئ هنا صفحات جميلة جدا، تستشف فيها عبقرية ديكارت المتنبئة كيف أن نمو العلوم يعيننا على أن نستعمل قوى الطبيعة في جميع الاستعمالات التي أعدت لها ويجعلنا « سادة على الطبيعة مالكين لها » بل انه يذهب الى الاعتقاد بأن تقدم الطب يستطيع أن « يعفينا من أمراض لا تحصى ، أمراض البدن وأمراض النفس ، بل ربما من ضعف الشيخوخة أيضا » .

ويلاحظ بالاضافة الى هذا انه لكي يحقق الغرض الذي بينه ، يلزم اجراء عدد من التجارب كبير ؛ ولكن لا تكفي لذلك حياته ولا دخله المالي ، ولو بلغ أكثر مما عنده ألف مرة . فيجب اذن أن يتمم غيره ما قد بدأه أو أن يعينوه في البحث عما يبقى عليه أن يعمله . ومن أجل ذلك الى هذا ، بل من أجل أن يلزم التزاما أخلاقيا جميع من لديهم القدرة عليه ، أراد أن يعرف الناس بمضمون رسالته .

ولكنه عدل عن رأيه . لا لأنه عدل عن اعلان الحقائق التي اكتشفها ، ولكنه رأى تأجيل النشر، لأسباب منها: تجنب المعارضات والمجادلات التي يغلب على الظن أن يكون كتابه عرضة لها ؛ ثم الرغبة في أن يدخر لنفسه فترة من الوقت أطول لاتمام البحوث التي كان قد بدأها . وقد علمته التجربة قلة الجدوى من معارضات المعارضين ، كما اقتنع بأنه يكاد يكون من المستحيل أن يعهد المرء الى الآخرين بتتمم ما بدأه هو . فالتلاميذ غالبا ما يسيئون تفسير فكر الأستاذ وكثيرا ما يلبسونه ثوبا غير ثوبه ان لم يمسخوه مسخا . وفي كلام ديكارت بهذا الصدد ضرب من الارهاص بما سيقع في الأجيال المقبلة . ولذلك نراه يتجه الى الخلف بالرجاء أن « لا يصدقوا أبدا أن ما يقال لهم قد صدر عنه ان لم يعلنه هو نفسه » . ويلاحظ أخيرا أن التجارب المطلوبة والتي يمكن أن يقوم بها الآخرون قد بلغت من التعقيد حداً يجعل من الصعوبة بمكان أن يقع الاتفاق عليها بين الباحثين ويقلل احتمال تنسيق جهودهم من أجل الغاية الواحدة .

غير أن ديكارت رأى مع ذلك أن ينشر « المقال في المنهج » ، مصحوبا ببعض بحوث خاصة عن « البصريات » و « الآثار العلوية » . وهو يفسر لنا الأسباب التي حملته على اتخاذ هذا القرار ، فيقول : ان أشخاصا كثيرين قد عرفوا أن في نيته أن ينشر ما وصل اليه من اكتشافات.

فلو أنه أمسك عن النشر فربما يتأولون أسباب اقتناعه ويتصورونها على غير حقيقتها ؟ ثم انه يشهد كل يوم تزايد التعويق لخطته في تعليم نفسه بسبب حاجته الى تجارب عديدة لا تحصى لا يستطيع أن يقوم بها ، دون معونة من الغير • ــ لهذا كله رأى واجبا عليه أن ينبه الخاصة من الباحثين الى ما يمكنهم أن يعاونوه به •

وفي ختام « المقال » يبين ديكارت السبب في تأليف كتابه باللغة الفرنسية دون اللاتينية ، خلافا للعرف المألوف عند العلماء ، وهو « أنه يأمل أن أولئك الذين لا يستعملون الا عقولهم الفطرية في خلوصها ونقائها سيحكمون على آرائه خيرا من أولئك الذين لا يؤمنون الا بكتب القدماء • أما الذين يضيفون الى الدرس سلامة الذوق ــ وهو يرجو أن يكونوا هم وحدهم قضاته ــ فانه واثق أنهم لن يكونوا منحازين الى اللاتينية انحيازا يجعلهم يرفضون سماع حججه لمجرد أنه يشرحها بلغة العامة •

(ب) تاريخية « المقال في المنهج »[1] :

مال بعض المحدثين من كتاب السيرة الديكارتية الى التشكيك في تاريخية القصة التي رواها ديكارت عن حياته في كتاب « المقال في المنهج » :

ففي « مجلة العالمين » كتب « بول جانيه » (بتاريخ ١٥ من يناير ١٨٦٨) مقالا عجيبا عن ديكارت بين فيه أن من سمات أخلاق الفيلسوف الخيال القصصي • والولع بالسفر • والحاجة الى الحركة • وقرر أن الفيلسوف فيما يبدو له قد رتب حياته العقلية ترتيبا متأخرا حين هم بكتابة «المقال» : « فهو حين وصل الى وعي تام بمشروعه الفلسفي اعتقد ، تحت تأثير الفكرة التي كانت مسيطرة عليه حينذاك ، أن جميع خواطره كان لا بد أن تدخل في هذا الاطار ؛ وجعل من رحلاته نفسها اعدادا لمنهجه ، وأضفى نسقا على حياته كلها منذ خروجه من المدرسة الى البناء النهائي لمذهبه » •

وهذا الرأي المعتدل نوعا ما يعبر عن الحذر المطلوب الذي يمارسه كل مؤرخ أمام قصة كقصة « المقال » •

ولكن « الفرد اسبيناس » قد عاود النظر في سيرة ديكارت ، ورأى في كتاب « المقال » وثيقة تاريخية تثير بعض الشبهات ، من حيث الشكل ومن حيث المضمون على السواء ، وانتهى الى رفضه كله دون أن يفرق بين ما يتصل بهذا وما يتصل بذاك ، وقال : « ان ديكارت هو المؤلف الأول لأسطورة الرحلة العلمية في ربوع أوربا : فكان لا بد وفقا للمعطاة الأساسية للمقال في المنهج أن تقدم حياته طبقا لخطة ، وأن تجد جميع خطواته مبررها في مبدأ وحيد ، هو اعداد الفلسفة الديكارتية ، الخ » ــ هذا يتصل بنقد الشكل • والنقد ينصب على مضمون القصة حين يكتب « اسبيناس » : « ان من العسير أن نصدق أن ديكارت في الخامسة عشرة من عمره كان ناقدا للتعليم في مدرسة لافليش ، مع أن هذا التعليم كان عندي موضع اهتمام يبلغ حد الغرام • ثم ان الحلم الذي أطلقته في المقال في المنهج على المدرسين حلم لا يصدق تاريخه : فلا نستطيع أن نتصور أن شابا حديث السن يسيطر على مجموعة العلوم والفنون المقررة في دراسته ، ويستعرضها ناظرا اليها نظرة التعالي ، آخذا على

(١) انظر جوهييه : « محاولات عن ديكارت » باريس ١٩٤٩ .

بعضها صعوبتها على البرهنة وان كان نفعه ، وعلى بعضها الآخر بأنها لا جدوى منه وان يكن من الممكن البرهنة عليها علميا » •

وقد ذهب « كانتكور » في بعض مقالاته (المجلة الفلسفية • نوفمبر ١٩٢٣) الى ان « قصة المقال في المنهج تخدعنا عن غير قصد عن الترتيب التاريخي لمشاغل هذا الفيلسوف ، كما تخدعنا عن نشأة وتسلسل العناصر المختلفة التي تألفت منها فلسفته ••• وهـذا التاريخ لأفكار ديكارت مزيف من طرف الى آخر ••• »

ان حذر «جانيه» وارتياب « اسبيناس » قد بلغا من الشدة على يدى « كانتكور » بحيث أصبح تأويلا عاما ومذهبيا ، يدافع عن قضايا كثيرة مختلطة غير متميزة : أولها : أن « اطار » القصة ترتيب عمل مؤخرا • وثانيها : أن «مضمونها» زائف وثالثها : أن حياة ديكارت وعقليته يجب أن يعاد النظر فيها ؛ ونظرة التاريخ تكاد تكون مضادة لنظرة « المقال » : فمما يلفت النظر في تاريخ حياة ديكارت وتاريخ فكرة بروز الذكاء • ويمضى « كانتكور » محاولا أن يدلل جانب المصادفات والمفاجآت وتقلب المزاج على الزيف التاريخي لكتاب « المقال في المنهج »،

ومتى تم له أن يجعل من رأيه دعوى وقضية عامة ، فقد كان من الميسور له طبعا أن يذهب الى أن حياة ديكارت مؤلفة من أحداث لا يمكن التنبؤ بها •••

وهذا في الحق أمر قد سبق اليه «كانتكور» وليس فيه جديد • وقد فاته هنا أن يرى أنه اذا كانت الحياة عدم امكان التنبؤ فالفكرة ذاكرة • وديكارت اذا كان قد أعاد بناء حياته وهو يكتب « المقال » ، فقد صنع ذلك مستعينا بالذكريات •

واذا لم يكن ديكارت ديكارتيا عند مغادرته « لافليش » ، فان ديكارت في سنة ١٦[illegible] ليس مع ذلك انسانا آخر غير تلميذ « لافليش » أو جندى « بريدا » • ويترتب على ذلك أمور :

(١) ان ديكارت سنة ظهور « المقال في المنهج » فيلسوف مالك لنسق فلسفي ، ويرى بوضوح ماضيه في ضوء هذا النسق• ومن العسير عليه أن يفكر في ماضيه دون هذا الحاضر الذى يبدو نتيجة له • و « اطار » القصة نظام أدخله ديكارت مؤخرا ، لا خطة عمل تصورها يافعا •

(٢) ان « اطارا » يوضع مؤخرا ليس بالضرورة زائفا• وغياب القصد والتدبير لايستبعد من الذهن كل رسم أو خطة • والمهم هو أن لا نأخذ الخطة على أنها قصد • وشباب ديكارت ليس تحقيقا لنظام مقدر من قبل • ولكن الحياة هي دائما خلق « لنظام بلا برنامج محدد • واذا كانت الخمس والثلاثون التى أدت الى ظهور كتاب « المقال » أقل اتساقا من التخطيط المطابق الذى نجده فيه ، فليس بديهيا مع ذلك أن يكون هذا التخطيط اللاحق محض اختلاق •

(٣) واذن فالاطار والمضمون في « المقال » لا ينفصلان ، من حيث هما حاضر وماض ، واختراع وذاكرة في فكرنا • ومن التبسيط المسرف أن نفرق بين « اطار » صناعي يصلح لترتيب « مضمون » حقيقي ، ويكون أشد اسرافا أن نرفض كل شيء جملة ـ ان تاريخية «المقال» شيء يمس ذاكرة ديكارت • وكل ذكرى هي اعادة بناء لماض غائب في وعى حاضر ، ولكنها ليست ذكرى الا بحضور هذا الماضى • و «اطار» « المقال في المنهج » و « مضمونه » يمثلان وحدة

فيها يستدعي الحاضر الماضي ، وفيها أيضا يفرض الماضي نفسه على الحاضر •

(٤) أين نجد في نص « المقال » ذكريات ديكارت الحقيقية ؟ وفيم كانت حياته ملائمة لهذا النمط أكثر من أي نمط آخر ؟ تلك هي الأسئلة الموضوعة أمام المؤرخ • ومن أجل هـذا كانت تاريخية « المقال » مشكلة تمحيص قبل أي شيء آخر •

وهذا ما قد أوضحه « اتين جيلسون » في « تعليقه على المقال في المنهج » • وهذه المراجعة تؤيد أقوال ديكارت الى حد كبير • ان النص الذي أورده فيه تدقيق يسترعي النظر : والخطوط الكبرى التي يرسمها في ماضيه هي بالجملة الخطوط التي يستطيع التاريخ أن يجيزها ؛ واللحظات الحاسمة التي يذكرها هي اللحظات التي تطابق فترات ذات أهمية استثنائية•

(ج) دخائل « المقال في المنهج » :

ان « المقال في المنهج » كتاب فيلسوف راض كل الرضى ، راض بفلسفته وراض على الخصوص بالمنهج الذي جاءت هذه الفلسفة تحقيقا له متصلا لا ينقطع : « لقد شعرت ببالغ الرضى منذ بدأت استعمال هذا المنهج ، الى حد أنني ظننت أن المرء لا يستطيع أن يحظى بأحلى من هذا الرضى ولا أبرأ منه في هذه الحياة • وبكشفي كل يوم بواسطته عن حقائق يبدو لي أنها ذات شأن ومجهولة من الآخرين ، كان ما نلته من الرضى ملء نفسي الى حد جعلني لا أحفل بما عداه » •

ورضى ديكارت هو رضى انسان جاوز ما كان في حسبانه ، ان لم يجاوز مجرى أحلامه : لن أخشى أن أقول اني أحسب أنه قد كان لي حظ كبير اذ التقيت منذ شبابي بمسالك معينة ساقتني الى اعتبارات والى مبادىء كونت منها منهجا يتيسر لي به ، فيما يبدو لي ، أن أزيد بالتدريج معرفتي، وأن أرفعها شيئا فشيئا الى أعلى درجة يستطيع أن يسمح ببلوغها ضعف ذهني وقصر حياتي • فقد سبق لي أن حصلت منه على قدر من الثمرات ••• يجعلني أشعر ببالغ الرضى من التقدم الذي أحسبني قد بلغته من قبل في البحث عن الحقيقة، ويمهد لي أن أعقد آمالا عن المستقبل كبارا ، حتى أنني أصبحت أرى أنه اذا كان من مشاغل الناس من حيث هم ناس ما هو خير وذو شأن ، لملت الى الاعتقاد بأنه هو ذلك العمل الذي اخترته » •

« ولكن أكثر ما أرضاني من ذلك المنهج هو أني قد استوثقت من أنني أستعمل في كل شيء عقلي ، ان لم يكن على وجه الكمال ، فعلى الأقل على أفضل ما في استطاعتي من وجوه •••؟ « ومن حيث انه ••• يكفي أن تحكم حكما حسنا لكي تفعل فعلا حسنا ، وأن تحكم أحسن ما تستطيع حكما لكي تفعل أيضا أحسن ماتستطيع فعلا ، •• واذا استوثقت من أن ذلك كائن ، فلن تخلو من أن تكون راضيا » •

ان نغمة ديكارت في كتاب « المقال في المنهج » نغمة رجل مستبشر النفس منشرح الصدر ، رجل ناجح ازدهرت شئونه وأقبلت الدنيا عليه، فمضى منميا لأعماله موسعا لمشروعاته. ويبدو عند ديكارت أن الانشراح ليس هو المرافق الطبيعي للنجاح فحسب ، بل ان الانشراح ليصير شرطا للنجاح في أكثر الأحيان ، كما ذكر ديكارت للأميرة « اليزابث » : « لقد جربت أن الأشياء التي قمت بها وأنا منشرح الصدر وبغير

أى شعور بنفور داخلى قد كان النجاح فيها حليفى » •

ولكن المشروعات التى تشغل ديكارت على وجه خاص هى مشروعات الذهن والفكر • وديكارت راض مبتهج بما هو كائن قبل أن يبتهج بما سيكون ، فابتهاجه مصاحب لنجاح فعلى وليس هو التكهن بنجاح محتمل : وهذا النجاح الفعلى هو نجاح منهجه العقلى • وديكارت راض مبتهج ، لأنه نجح ، ولكن النجاح عنده هو تحصيل اليقين • واذا فى قمة فلسفته معارف نافعة للحياة ، فلأنها تطبيق صحيح لمعارف يقينية غير ظنية • واذا كانت « التقنية » العلمية تضع العالم تحت تصرف الانسان ، فهذا السلطان الزمانى هو المرحلة الأخيرة لغزو روحى • واذن فالنجاح العظيم ، النجاح الذى يعلو على كل نجاح آخر ، هو اكتشاف هذه « التقنية » النظرية الخالصة التى تضع الذهن الانسانى مالكا للحقيقة فاتحا آفاقها المترامية •

الحقيقة تنتج اليقين • واليقين « انبساط » ورضا ، بل هو أصفى وأخلص رضا يستطيع الانسان أن يستشعره فى هذه الدنيا : واذن فمؤلف « المقال فى المنهج » يستطيع أن يناجى نفسه ويقول انه فرحان بما هو فيلسوف وبما هو انسان ، ومبتهج بالمنهج الذى يحصل له مثل هذا اليقين •

واليقين رضا وانبساط • وهذا أمر واقع ؛ ولكن هذا الأمر الواقع ذو دلالة بعيدة المدى : واذا كان الانسان كائنا ناطقا ، فاليقين هو حال انسان يكون انسانا على الحقيقة : والرضى الناشىء من اليقين يعبر عن عروج الانسان الى الانسانية الحقة • والانسان ليس مجعولا للاقامة على الشك والارتياب ، ولا هو مجعول للحياة فى قلق و « حصر » • ان نفسا قلقة لهى نفس شقية ، وان نفسا ترعى قلقها وتتعهده لهى نفس مريضة، وان نفسا تؤمل فى قلقها لهى نفس تخون قدرها •

واذا كان « بسكال » معاصرا لديكارت ، فتلك احدى المصادفات التى تجعل التاريخ مسرحا للمفارقات • ان أمورا كثيرة لم يستطع بسكال أن يغفرها لديكارت : غرامه بالعلم ، والهه بغير انسانية ••• ولكن مهما يكن من محاولات للصلح بين الرجلين ، فالواقع أن الخلاف بينهما أعمق من أن يعبر عنه بوضوح • وان احتجاج « بسكال » على ديكارت واقعة تاريخية معينة • ولكن تجدد هذا الاحتجاج من عصر الى عصر هو خط من الوقائع يرفع التعارض بين رجلين الى تعارض بين ذهنين أو عقليتين •

وفرق بين الرضى الذى نقرؤه فى «المقال» صراحة أو نستشفه مما بين السطور كتابات ديكارت ، وبين الهدوء المرح الذى نجده عند الرجل المستمتع بطيبات الحياة ، والذى وجد لأنه لم يبحث قط فى الديكارتية مهمة الذهن أن يبحث ؟ والمرء لا يبحث وهو يتأوه ، بل بمنهج وهو فرح جذلان •

رضا ديكارت انبساط عميق ككل انبساط يعنى كمال الوجود ، ولكنه لا يمكن أن يستشعر الا فى عالم لم تعد الطفولة فيه هى الفردوس المفقود • ان براءة أخرى غير براءة الحواس وهى براءة الذهن — تأخذ بمجامع القلب : ان فرحة الهمس المطمئن فى غير صخب ، يعلن عن مولد الانسان بالمنهج •

٤ ـ نصوص مختارة من «المقال فى المنهج»

(أ) العقل أحسن الأشياء قسمة بين الناس :

« العقل هو أحسن الأشياء توزعاً بين الناس بالتساوى ، اذ يعتقد كل فرد أنه أوتى منه الكفاية ، حتى الذين لا يسهل عليهم أن يقنعوا بحظهم من شيء غيره ، ليس من عادتهم الرغبة فى الزيادة على ما لديهم منه • وليس براجح أن يحظى الجميع فى ذلك ، بل الراجح أن يشهد هذا بأن قوة الاصابة فى الحكم وتمييز الحق من الباطل وهى فى الحقيقة التى تسمى بالعقل أو النطق ، تساوى بين كل الناس بالفطرة • وكذلك يشهد بأن اختلاف آرائنا لا ينشأ من أن البعض أعقل من البعض الآخر ، وانما ينشأ من أننا نوجه أفكارنا فى طرق مختلفة ، ولا ينظر كل منا فى نفس ما ينظر فيه الآخر » •

(ب) نظرة الى ثقافة العصر :

« لقد عذبت بالآداب منذ طفولتى • وأقنعت أنه مستطاع بواسطتها تحصيل علم يقينى بكل ما هو نافع فى الحياة ، فاشتدت رغبتى فى تعلمها • ولكنى ما كدت أفرغ من تلك المرحلة الدراسية حيث جرى العرف أن يقبل الدارس فى نهايتها فى زمرة العلماء حتى غيرت رأيى تغيراً تاماً : فقد وجدت نفسى يساورنى من الشكوك والضلالات مابدالى معه أننى لم أكتسب من جهودى فى التعليم الا تَبيُّنى شيئاً فشيئاً مبلغ جهالتى •

على أنى كنت فى مدرسة من أشهر مدارس أوروبا كنت أظن أنه يجب أن يكون فيها علماء ، اذا كان فى أى ركن من الأرض علماء • ولقد تعلمت فيها كل ما كان يتعلم غيرى ، بل اننى لما لم أقنع بما كانوا يعلموننا من العلوم ، تصفحت كل ماوصل الى من كتب فى العلوم التى يعتبرونها أعجب العلوم وأندرها ••• ثم انه كان يخيل الى أن عصرنا فى ازدهاره وفى خصبه بالعقول القوية ، لا يقل عن أى عصر من العصور السالفة •••

وعلى كل حال فانى ما غمطت حق ما يشتغلون به فى المدارس ، وانى لأعلم أن اللغات التى تعلم فيها ضرورية لفهم الكتب القديمة ، وأن طلاوة القصص توقظ النفس ، وأن حوادث التاريخ المذكورة تسمو بها ، واذا قرئت بتمحيص أعانت على تكوين ملكة الحكم على الأشياء • وأن مطالعة الكتب الجيدة هى كمحاضرة مؤلفيها الذين هم خير أهل القرون الماضية ، بل هى محاضرة معتنى بها ، لايكشفون لنا فيها الا عن صفوة أفكارهم ؛ وأن للبلاغة قوة وجمالا لا يضارعان ؛ وأن للشعر رقة وحلاوة رائعتين جدا ، وأن فى الرياضيات اختراعات دقيقة جدا وتفيد كثيرا فى ارضاء الأذهان المتطلعة وفى تيسير سبل الفنون جميعا ، وتوفير جهود الناس • وأن كتب الأخلاق تشتمل على كثير من التعاليم وعلى مواعظ كثيرة تحث على الفضيلة وهى مفيدة جدا ؛ وأن علم اللاهوت يهدى الى طريق الجنة ؛ وأن الفلسفة تعطينا وسيلة للتكلم فى كل شيء بما هو أدنى الى الحق وللظفر باعجاب من هم أقل منا علما ، وان التشريع والطب والعلوم الأخرى تجلب الجاه والمال لمن يتعلمونها ، وأخيرا أرى أن من الخير أن نخبرها جميعا حتى أكثرها خرافة وبطلانا ، لنعرف قيمتها الصحيحة ونحذر الخديعة فيها » •

(ج) الدليل على وجود الله مستخلصا من فكرة الكامل :

« لما فكرت فى شكوكى ، وأن مؤدى هذا

أن ذاتي لم تكن تامة الكمـــال ؛ لأني تبينت أن المعرفة كمال أكبر من الشك ،رأيت أن أبحث أني تعـلـمت أن أفكر في شيء أكمـــل مني ؛ وعرفت يقينا أن ذلك يجب أن يكون ذا طبيعـة هي في الواقع أكمـــل • أما ما كان لدى من تفكيرات في أشياء كثيرة أخـرى خارجة عني ، مثل السماء والأرض والضوء والحـرارة الخ ، فلم أتعب كثيرا في معرفة من أين جاءت ، لأني اذ لم ألاحظ فيها شيئا يجعلها في نظرى أسمى مرتبة مني ، استطعت أن أعتقـــد أنها اذا كانت حقيقية فانها من توابع طبيعتي ، ومن جهـــة أن طبيعتي لها شيء من الكمال ، وأن هذه الأشياء ان لم تكن كذلك ، فانني أكون استمددتها من العدم ، أي أنها كانت حاصلة عندي من جهـة ما فيّ من نقص •

ولكن الأمر لا يمكن أن يكون على هـذا النحو فيما يتعـلق بفكرة وجـود أكمـــل من وجودي • لأن استمداد تلك الفكرة من العـدم أمر جلي الاستحالة ، اذ أن التناقض الواقـع في أن الأكمل يكون لاحقا وتابعا لما هو أقل كمـالا ليس أقل من التنـــاقض الواقع في أنه يحـدث شيء ما من العدم ، اذن فأنا لا أقدر أيضا على أن أستمد هذه الفكرة من نفسي • وعلى ذلك بقي أن تكون هذه الفكرة قد ألقيت الي من طبيعة هي في الحقيقة أكثر مني كمالا ، بل ولها من نفسها كل الكمالات التي أستطيع أن أتصورها ، وبعبارة أخرى هي الله » •

(د) أخلاق مؤقتة :

« لكيلا أظـــل مترددا في أعمـــالي حينما يضطرني العقل الى ذلك في أحكامي ، ولـكيلا أحرم نفسي من أسعد حياة أقدر عليها ، وضعت لنفسي قواعد للأخلاق مؤقتة لا تشـتمل الا على ثلاث حكم أو أربع :

« الأولى : أن أطيع قوانين بلادها وعاداتها، مع ثبت في محافظتي على الديانة التي أنعم الله علي بأن نشأت فيهـا منـذ طفولتي ، وأن أحكم نفسي ، في كل أمر آخر تبعا لأكثر الآراء اعتدالا وأبعدها عن الافراط ، والتي أجمع على الرضى بها في العمل أعقل الذين سأعيش معهم •••

« والثـــانية : أن أكون أكثر ما أسـتطيع جــزما وتصـميما في أعمـــالي ، وألا يكون استمساكي بأشـــد الآراء عرضـــة للشك ؛ اذا ما صحت عزيمتي عليها ، أقل ثباتا مما لو كان من أشد الآراء وضوحا •••

« والثالثة : أن أجتهد دائما في أن أغالب نفسي ، لا أن أغالب الحظوظ ، وأن أغير رغباتي لا أن أغير نظام العـالم • وبالجمـــلة ان أتعود الاعتقاد بأننا لا نقدر قدرة تامة الا على أفكارنا ، بحيث أننا اذا فعلنا خير ما نقدر عليه ، فيما يتعلق بالأمور الخارجة عنا فان كل ما ينقصنا بعد ذلك من أسباب النجاح هو بالنسبة الينا مستحيل على الاطلاق ••• »

(هـ) بين الاعتزاز والتواضع :

« وأما المنفعة التي سينالها الآخـــرون من نشر أفكاري فانها لن تكون كبيرة جدا ما دمت لم أتقدم بها تقدما كبيرا يجعلها غير محتاجة الى اضافة الشيء الكثير اليها في تطبيقها • وأحسب أني أستطيع أن أقول دون غرور أنه اذا كان هنالك شخص يستطيع ذلك ، فاني أكون قطعـا

أولى بذلك من أى واحد غيرى ، لا لأنه لا يمكن أن يوجد فى العالم أذهان كثيرة أفضل من ذهنى على نحو لا يجارى ، ولكن لأنه ليس فى مقدور المرء أن يتمثل شيئا وأن يجعـــله ملكا له ، اذا تعلمــه من غـــيره ، كما يكون فى مقـدوره اذا استكشفه بنفسه : وذلك صحيح جدا فى هـذا الأمر : وآية ذلك أنى كثـــيرا ما شرحت بعض آرائى لأشخاص ذوى قرائح جيدة جدا ، وكان يبدو عليهم وأنا أتحدث اليهم أنهم يفهمونها فهما متميزا جدا ؛ ومع هذا فانهم حينما كانوا يعيدونها كنت ألاحظ أنهم قد غيروها بصـــفة تكاد تكون دائمة تغييرا يجعلنى غير قادر على أن أتبين أنهـا آرائى •

ويطيب لى بهذا الصدد أن أرجو أحفادنا ألا يصدقوا ما سيقال لهم انه صـــادر عنى ، اذا لم أكن قد أذعته أنا بنفسى • »

٥ ــ أثر المقال فى المنهج :

أشرنا فى بداية هذا الفصل الى اثر ديكارت على العلم الحديث كله المتشبع بالرياضة على نحو ما أراده الفيلســـوف أن يكون • وقـد أظهرنا مفكرى القرن الثامن عشر ، فى تطبيقهم المنهـج الديكارتى على الأفكار السياسية والدينية ، أنهم ربما كانوا ديكارتيين أكثر من ديكارت نفسه ، حتى لقد استطاع بعضهم أن يقول ان « الثـورة الفرنسية » قد صدرت عن « المقال فى المنهج » • وعلى أى حال فكل انسان يستعمل عقله ــ حرا ــ للبحث عن الحقيقة يستطيع دائما أن يعد نفسه تلميذا كهذا الرائد العبقرى من رواد الحرية •